حياة جديدة

قصص

حسني سيد لبيب

حياة جديدة

حسني سيد لبيب

صورة الأستاذ مرسي

مات الأستاذ مرسي.

جمد ابنه عباس حين وصله النبأ هاتفيا، فهب من جلسته ورفع قامته، ثم أخرج زفرة حادة من صدره. نظر إليه خليل أفندي دون أن يتحرك قيد أنملة.. النظارة منزلقة على أرنبة أنفه يطل منها على أوراق مكدسة أمامة.. نظر إليه بعينيه المجردتين، تاركا النظارة تلهو كما تشاء على أنفه.

ـ تعيش أنت يا أستاذ عباس.

رنت العبارة في أذنيه رنينا حادا. التقت عيناه بغتة بمرآة صغيرة معلقة فـرأى فيهـا شاربه. إنه ليس كما ينبغي أن يكون. جال في المكتب والموظفين بنظرات تائهة حائرة، وهو لا يدري ما الذي يريده بالضبط. قال له علي الزهاوي :

ـ تفضل يا أستاذ عباس، وسنكتب لك الإجازة.

مرة ثانية ترن "أستاذ عباس" رنينا حادا، وكأنه يسمعها للمرة الأولى. خرج في جمود من مكتب المستخدمين متلهفا على تحية كل من يلقاه، وكأنه يتأكد من أن الناس لم تزل تعرفه.

نبح كلب في إثره وهو يتجه إلى محطة الترام. تناول حصاة وقذف بها الكلب، فازداد نباحه. لكن عباس اكتفى بالتعبير عن سخطه عليه، ولم يأبه بنباحه المتزايد. إنه عموما يكـره الكلاب، وحتى محروس يكرهه أيضا.

وحروس هذا كلب عجوز يقتنيه أبوه. كره محروس وخشي أباه. لهذا السبب حاول أن يستقل بنفسه حين تزوج، لكن أباه عرض عليه الإقامة معه في الشقة العتيقة، فوافـق دون أن يتدبر الأمر. وربما كان يقترح هو نفسه ذلك لو لم يعرضه عليه أبوه. فبرغم خشيته أباه، إلا أنه يراه إنسانا ضروريا في حياته.

انحشر في الترام، واختلط ضجيج أفكاره بضجيج الترام، فأحس صداعا رهيبا يحفـر رأسه. مات أبوه إذن.. فهل تغير العالم ؟.. هل يتغير هو ؟.. لم يكن يجيب على تسـاؤلاته، وإنما كان يطرحها فقط.

التقى زوجته على السلم، فألفاها متشحة بالسواد. نظر إليها في صمت. فقالت له وهي تمسك بكتفه وترمقه بعينيها :

ــ شد حيلك يا عباس.

إنه لم يتغير في نظرها. أحقيقة أنه لم يتغير ؟! تمتم وهو يصعد الدرج :

ــ أمات حقا ؟!

بكت زوجته بكاء مرا، فقد كان بالنسبة لها شيئا ضروريا. هو الذي كان ينجز كل شيء، وكان لا يخيب أملهم في شيء. كان يقدر المسئولية فلا يتخلى عنها. ولم يكن ينظر إلى ولده الوحيد عباس نظرة جادة، وإنما اعتبره طفله المدلل، حتى أنه أسكنه معه بعد الزواج. أما ابنته الكبرى فقد تزوجت ورحلت مع زوجها إلى المنصورة حيث عمله، بينا قعدت الصغرى في البيت في انتظار العريس.

قابل وجوها متباينة كثيرة... تكثر النظر إليه، تتأمله في عطف ورثاء، ثم تنثال الكلمات من الشفاه في عبارات عزاء صادقة، وتتوه عيناه في الوجوه متفحصة ولا يكاد يسمع كل كلمة تقال، وإنما ارتأى الجميع قد آلمتهم الصدمة وغيرت من طبيعتهم.. كأنهم يؤكدون أنه مات.

دخل غرفة أبيه الصغيرة. في الغرفة مكتبه حيث كان يقرأ بعض كتب القانون، وكنبة بجوار النافذة، وبعض الكراسي تحتل فراغ الجوانب الأخرى من الغرفة، وفي الوسط منضدة خشبية لم يكن لها استعمال سوى وضع الطاولة العتيقة عليها.. ثم يشهد البيت كله من قريب أو بعيد مباراة حامية بينه وبين رفيق العمر الأستاذ فهمي بخيت، الذي كان في مثل خشونته وإن اتسم بدماثة الخلق.

دخل الغرفة ووقف مشدوها قبالة صورة أبيه الموضوعة في إطار مذهب كبير.. ويتذكر الأستاذ فهمي حيث كان يجلس قبالتها يتأملها ثم يتمتم :

ــ صورة الأستاذ مرسي تشعرني بأن في البيت رجلا شجاعا. يا لها من صورة !

حملق عباس في الصورة طويلا وهو يتذكر كلمات فهمي التي لا يمل من تكرارها. ووجد في ضخامة الصورة شيئا غير طبيعي. إنها تكاد تبتلع وجوده. وكثيرا ما تمنى أن يتخلص من محروس، لكن إصرار الأب على وجوده أحجمه عن تنفيذ ما يرغب. وعاش في البيت مكدودا بسبب شيئين حادين يوجدان فيه رغم أنفه : صورة أبيه وكلبه الأمين.

حين سقطت نظرات أمه عليه، لم تستطع تكتم دموعها. قالت في صوت ممزوج بأنات الألم :

ــ مات.. مات يا ولدي رجلنا كلنا.

نظر إليها عباس في جمود، بينا أخته فتحية تنظر إليهما في بلاهة، ثم قالت :

ــ الشيخ محمود حضر.

والشيخ محمود رجل ضرير يقطن في نفس الشارع ، في غرفة يتيمة على سطح بيت متهالك. وهو مقرئ الأستاذ مرسي الخاص. يحضر مساء كل خميس، وكان عباس يضطر إلى الجلوس جوار أبيه وسماع آي الذكر الحكيم، بينا يستغرق أبوه في الإنصات وفي يده مسبحة كهرمانية يحرك حباتها حينا، ويرشف فنجان القهوة حينا آخر.. ومن حين لآخر يطلق عبارات الترحم على أبيه الذي مات منذ ليس بقريب.

دخل الشيخ محمود يسنده الأستاذ فهمي كما هو مألوف في كل مرة. فقط ظل الشيخ، في هذه المرة، يسترسل في عبارات الترحم على الأستاذ مرسي مغدق الخيرات عليه.. ولو أنها خيرات بسيطة لا تعدو العشاء الأسبوعي، وشرب القهوة، أما الينسون فلا يقدم إلا إذا طلبه الشيخ بنفسه.

مال الأستاذ فهمي قليلا وهمس في أذن عباس:

ــ سيعد للمرحوم صوانا كبيرا يناسب مقامه.

أحضرت فتحية صينية القهوة، وقالت وهي تناول أخاها فنجانه:

ــ محروس مات.

ــ مات!.. هو أيضا ؟

ــ سقط قتيلا تحت عجلات عربة نقل ضخمة.

وجم عباس وطال وجومه، ثم أخرج لفافة وأشعلها في ضيق. ولم ينس أن يناول الجالسين لفافات الدخان. كانت هذه أول مرة يدخن فيها في غرفة أبيه العتيقة. لم يكن يجرؤ على التدخين أمام والده، برغم سنه ووضعه الاجتماعي كزوج وموظف.. كشخص مستقل، لكن ذلك لم يكن يضايقه كثيرا، وإن كان يقلق تفكيره بعض الشيء. كان أبوه يدخن مشاركة مع صديقه فهمي، ويجلس في حضرتهما عباس، الذي لا يشعر أن به للدخان حاجة. ألف هذا الوضع ولم يفكر في تغييره.

أما هذا التغيير المفاجئ، فقد كان مبعث دهشة فهمي فسأل في طيبة خاطر:

ــ أتدخن؟.. كان الله في عونك يا ولدي.

وتطايرت فتحية بالخبر الجديد لتبلغه في شبه زهو وقور إلى أمها، فزعقت فيها ووبختها لعدم فهمها وعجزها عن التمييز. صاحت في ألم كأنها تحادث النسوة اللاتي يفترشن الحصير:

ــ بنت لا تعرف السماء من العمى. ولا على بالها ما نحن فيه.

فانثالت كلمات التطييب من ألسنة النسوة بما تسعفهن به الذاكرة.



بعد عامين

شاءت المصادفة أن يتلاقيا بعد فراق عامين. كان لقاء غريبا مذهلا. وجم الاثنان، وجمدا في مكانهما، ولم يقدرا على الكلام أو الحركة. ظلا صامتين، جامدين.. فلم يكن أحدهما يتوقع أن تلعب الأيام لعبتها التافهة، ثم تعود فتجمعهما دون موعد. فكلاهما أصر على ألا لقاء إلى الأبد!

منذ عامين..

أحس أنور أنه دمية تحركها مشيئة والديها.. كانا طامعين في مركزه الاجتماعي وماله. صارح صفاء بما يعتمل في نفسه، فانتابها ضيق، وفي لحظة طيش أنهت كل شيء.. خلعت الدبلة من أصبعها وأعطتها له بيد مرتعشة، وقالت :

ـــ من اليوم، أنت في طريق، وأنا في آخر.. واعتبر حبي لك مجرد أوهام!

لم تنظر إلى تعبيرات وجهه الصارم، وإنما أشاحت وجهها ثم مضت دون أن تراجع ما قالت أو تعطيه فرصة للرد.

وصممت على ألا تلقاه..

لكن!.. من الصعب أن يتغلب الإنسان على شيء اعتاده، وفي سبيل مغالبة نفسها، سفحت دموعا فياضة، وأحرقت أنفاس الليل بأنات وآهات، تكاد تنطق بما في دخيلتها من صراع وقلق وعذاب.

تتذكر الأيام الجميلة التي عاشتها معه، والذكريات السعيدة التي جمعتهما معا، والكلمات الرقيقة التي قالها، ورسائله المعطرة، وحبه العظيم، وأمانيه.. فتبكي، وتبكي.. ومن خلل دموعها تستشعر الندم لما اقترفته، فلا تملك شيئا تفعله غير البكاء من جديد.

إنها تحبه.. لكنها لا تريد أن تمتهن كرامتها!.. وتصر على ألا تلتقيه.

آلمه الفراق مثلما آلمها.. لكنه أحس بخطئه هو، فما كان يجدر به أن يصارحها بمثل تلك الكلمات.. وماذنبها في طمع والديها ؟ يا له من ساذج ! أليس هذا أمرا طبيعيا ؟ أجل، من الطبيعي أن ينظر أهل العروس إلى خطيب ابنتهم من الناحية المادية. وبرغم نظرتهم المادية المتطرفة، فما كان من اللائق أن يبوح بما يغضب صفاء.. ثم ينظر إلى ما حدث من ناحية أخرى، هي أن صفاء ربما لا تبادله نفس الحب الذي يكنه لها. وإذا كان مخطئا.. فبماذا يفسر تسرعها، وفسخها للخطوبة في لحظة طيش ؟

إنه يحبها.. لكنه لا يريد أن يمتهن كرامته !.. ويصر على ألا يلتقي بها.

عاش الاثنان على حبهما المفقود، وهما يتحرقان شوقا إلى لقاء ما..

والآن.. تحقق اللقاء، وأصبح واقعا ماثلا..

جمدت صفاء، وفي عينيها بريق حائر.. ونظرات أنور حائرة تائهة.. كلاهما لم يستطع أن يتحرك قيد أنملة، وكأن الزمان بسرمديته وأبديته قد توقف تماما، والمكان بمعالمه وظلاله قد انعدم.. لا زمان، ولا مكان..

وبرغم ثقل هذه اللحظات، إلا أنها لحظات قصار، استفاقا منها سريعا، وتعانقا..

وتغلب الحب على سرمدية الزمان وقيد المكان.. وغابا في فيض من القبلات.

همت بالاعتذار فأسكتها بقبلة، وحين هم بالاعتذار أسكتته بأخرى.

ـ يا لها من مصادفة جميلة!

همس الاثنان بتلك الكلمات المعبرة في لحظة واحدة، كأنهما ينشدان معا.

التقيا دون موعد.. وتبددت كل الخلافات، وتيقظ الحب شابا فتيا. ذاب المنطق، وبطلت الحجج، وليس للاعتذار قيمة.

كانت عائدة من الكويت بعد أن قضت عامها الدراسي الأول. وكان ينتظر الطائرة التي تقله إلى لبنان، ينشد فيها الراحة والاستجمام.

جلسا في "الكافيتريا"، والتقت العيون، وخفقت الأفئدة.. أخرج تذكرة السفر من جيبه ومزقها.. قال :

ـ لن أسافر..

وعقبت :

ـ ولن أجدد عقد عملي.. سأبقى معك..

أخرج من جيبه دبلتها القديمة، وقال :

ـ ما زلت أحتفظ بها معي.. أحتفظ بها في جيبي لأني أعرف أن يوما ما سنلتقي، وإن كنت لا أدري بالضبط متى يجئ هذا اليوم.

وفي طريق عودتهما، سأل :

ـ أما زلت تحبينني حقا ؟

أجابت بابتسامة.

وفي البيت، صحبته إلى غرفتها.. ألقى نظرته الأولى، فألفى صورته بجوار سريرها.. تناولت لفافة ورق من إحدى حقائب السفر وأعطتها له.. فتحها، فوجد رسائله المعطرة..

ـ إنها سلواي في غربتي..

ثم شردت قليلا، فسأل :

ــ فيم شرودك يا صفاء ؟

ــ أبدا يا أنور.. لكن !..

ــ لكن ماذا ؟

تناولت لفافة ورق أخرى، وقدمتها له :

ــ لا تسخر مني، ففي كل يوم، أكتب لك رسالة ثم تخونني الشجاعة، فلا أرسلها.. خذها واقرأها، ففيها تجد الجواب عن سؤالك !

عاد طائر الحب يرفرف من جديد..

وربما لعبت المصادفة دورا مهما في لقائهما، لكن الاثنين كانا ــ طيلة العامين ــ يتلهفان على هذا اللقاء، وينتظرانه.. كأنهما على موعد.

(يناير ١٩٦٧)

ذات الثوب الأسود

لا يشغل بالي شيء الآن سوى أمي المريضة. لا يشغلني سواها شيء. تركت عملي في العاشرة صباحا لألحق قطار الظهيرة، وأذهب إليها. وصلني اليوم خطاب من أخي.. خطاب مقتضب.. حياني فيه بطريقة عفوية وأوجز في سلاماته التي كان يسهب فيها إسهابا مضجرا. الخطاب أشبه بمذكرة احتجاج على موقفي السلبي من أهلي بالزقازيق، وعتاب من أخي على إهمالي شئونهم وخشيته من ضجيج القاهرة التي يعزو إليها سبب هذا التغيير الطارئ في حياتي. وفي نهاية خطابه ذكر لي أن أمي مريضة، لكنه لم يطلب مني أن أحضر. تضايقت من أسلوب الخطاب، لكني عذرت أخي وأقمت علاقة بين عتابه وجمودي، فعرفت أنه على حق، ويجدر بي أن أقيم توازنا في حياتي، بحيث أؤدي واجباتي كلها دون تقصير.

طالنا تقت إلى المال، وطالما بررت تصرفاتي على أساس أنها سليمة. لكن خطاب أخي جعلني أقلب الموازين التي اعتقدت فيها. وفي الحقيقة، ليس خطاب أخي هو السبب الرئيسي، وإنما ضيقي وتبرمي من كل ما حولي.. علاوة على السأم والملل اللذين يدبان في كياني ويصيبان رأسي بالدوار.. أحسست في الآونة الأخيرة بالضيق من تلك الطريقة التي أجابه بها الأحداث.. والتي أوزن بها تصرفاتي بميزان دقيق، دائما أنتهي بقرار يرضى عنه منطقي.. دائما أجدني أطرح تساؤلا واحدا: هل ما أفعله أو أقرره يتماشى مع الصواب؟ لكني أحاول دائما أن أطمئن نفسي بأن كل شيء يسير في مداره الطبيعي.

قفزت في عربة مزدحمة... الزحام خانق، والناس تلغو بكلمات أحيانا تكون طيبة وأحيانا تكون رغاء.. أو لا بد أن يتكلم الناس؟!.. بجانبي فتاة نحيفة القوام، ذات هيئة رثة. ترتدي ثوبا أسود كالحا.. وفوقه "باوفر" أسود.. مترب.. شعرها مهوش على الجبين.. مسكينة هذه الفتاة. يخيل إليَّ أن أطرافها تتثلج، فالبرد قارس هذه الأيام، ويبدو أن ما ترتديه من ملابس رثة كالحة لا يفي بحاجة الجسم إلى الدفء والغطاء.

تذكرت حكاية زواجي من فتاة في مثل سنها وقوامها، سمراء مثلها.. إنها عايدة ابنة

صاحبة المنزل الذي أقطن فيه.. وحين أعلنت رغبتي لأمها، قالت بغير اكتراث:

ـ يسعدنا أن تتزوج بنتنا.. يحصل لنا الشرف..

أغدقت عليّ بهذه الكلمات الحلوة، ثم سكتت، ومن يومها لازمت الصمت ولم تشر إلى الموضوع من قريب أو بعيد.. وظللت أجتر كلماتها الحلوة طيلة الشهرين الماضيين، وانتظرت ما يعقبها من عمل إيجابي. فكرت كثيرا في موقفي السلبي، وهل من الواجب أن أحادثها في الزواج مرة ثانية؟ لكني وجدت صوت العقل يصخب في أعماقي بأن الزم الصمت، فإن لي كبرياء لا يجدر بها أن تسفح... لقد بحت برغبتي وعليهم أن يبوحوا برغبتهم، وظللت ملتزما الصمت، فهذا هو الشيء المنطقي المقبول.. لكني في قرارة نفسي ضجرت وسئمت، وأحسست بالحياة قاسية غير معطاء، وإن أعطت فلتأخذ منا أكثر مما أعطتنا. ثم جاءني خطاب أخي، المقتضب، فأحسست بصدى كلماتي ترن في أعماق نفسي.

العربة مزدحمة، وكتل الناس المتراصة بجانبي تتقاذفني يمنة ويسرة، فأضطر إلى لمس الفتاة الحزينة الكاسفة البال... ثم اعتذرت لها حين رمتني بنظرة قاسية.

لكم ضايقني الزحام والصخب والكلام الممجوج.. خلا مقعدان فدفعت الفتاة كي تجلس، ثم جلست بجوارها.. فهذه فرصة للتخلص من الزحام الخانق.

استعرضت حياتي في صور متلاحقة متتابعة، فوجدت أني أعيش على هامش الحياة.. ودائما أخشى أن أغوص في أعماقها، بدافع من المنطق... شردت طويلا، أفقت.. فوجدت الفتاة ترمقني وترقب ما أنا فيه من شرود. حقا، لا يجدر بك أن تفصل نفسك عن الحياة وتشرد. لكن.. ماذا تفعل؟! أتتحدث مع الفتاة؟ إذن.. ماذا تقول لها؟ أنت لا تعرفها، وهي لا تعرفك.. أنتما رفيقا طريق، وسرعان ما تفترقان. لن يستمر الحديث بينكما سوى دقائق... أشبه بتلك الأحاديث الممجوجة التي يصخب بها الركاب.. ليس من اللائق أن تتكلم لمجرد الكلام. الزم الصمت، وفكر في أمك المريضة. لابد أن تفكر كيفية إرضائها بعد هذه الغيبة الطويلة. كم شهرا انقضى عليك في القاهرة؟ خمسة.. لا، إنها ستة أشهر تماما، على غير عادتك.. ويبدو أن تفكيرك في الزواج هو الذي ألهاك عن الاهتمام بأمك والسؤال عنها.

أفقت من شرودي على صوت الفتاة:

ـ كم الساعة؟

ـ العاشرة والنصف.

وعدت إلى شرودي. رمقتني الفتاة مرة ثانية بنظرتها القاسية، لكنها لم تقل شيئا. ما بالي أشغل نفسي بالفتاة؟ صحيح أنها فقيرة، ويبدو أن تأثري بحالها هو الذي شغلني بها، أو كونها في مثل قوام عايدة.. أوه.. توافه وفوارغ يصخب بها عقلي. يلزمني القليل من الراحة والهدوء. خبطات متتالية على زجاج الحاجز الذي يفصلني عن ركاب الدرجة الثانية.. لابد أنه

المحصل.. أبرزت له الاشتراك، ثم عدت مرة أخرى إلى ما كنت عليه، لكني أفقت سريعا على صوت المحصل ينهر الفتاة قائلا:

ـ التذكرة بقرشين.

ـ ليس معي سوى هذا القرش.

ـ لماذا تجلسين في الدرجة الأولى؟.. ألا تعرفين أنها بقرشين! آم من مكرك وخبثك!

تململت الفتاة وهمت بالنهوض، لكني دفعت لها القرش الباقي، وعاتبت المحصل بنظرة قاسية صامتة.

ـ متشكرة جدا..

ـ عمل بسيط لا يستحق الشكر.

نظرت إلى الساعة، فقالت الفتاة:

ـ أأنت مستعجل؟ لا بد أنك على موعد..

ـ أجل..

ولم أزد.

نظرت من النافذة فألفيت محطة مصر تقترب. نهضت عن الكرسي، والفتاة تنهض في أثري. لا بد أنها ستنزل في نفس المحطة. مسكينة هذه الفتاة.. قرشها الأخير دفعته للمحصل، لا بد أن فقرها مدقع.

لم يزل أمامي ساعة ونصف على موعد قيام القطار، من الممكن أن أتناول غدائي وأشرب الشاي. مشيت قليلا، ثم وقفت أمام مطعم.. وحين هممت بدخوله، ألفيت الفتاة المسكينة تومىء إليّ بأن أقف. ابتلعت ريقها، وقالت بصوت واهن:

ـ أنا جائعة.

فرحت لصراحتها. وإنها لفرصة طيبة للعمل الخير. سأحكي لأمي قصة لقائي بالفتاة. ستغمرني بدعواتها الطيبة، وتحسدني على تلك الخطوة الجديدة.. فهي دائما تتهمني بالبخل وعدم مساعدة المحتاجين. لا شك أنها ستفرح.

نظرت إلى الفتاة لا أدري ماذا أقول لها على وجه التحديد، أأدعوها للدخول معي؟.. أم أسألها عن طعامها المفضل؟ صمت فترة غير قصيرة، ويبدو أنها فهمت من صمتي أني وافقت، فقد دخلت المطعم بخطوات جريئة فانقدت فيي إثرها دون أن أتكلم.

تناولنا الغداء، وظللت أثرثر بكلمات كثيرة. أحسست بحاجتي إلى الكلام، والفتاة تنصت وتنصت، ولا يبدو عليها الملل.. وإنما ارتياح تام يبدو على سيماء وجهها، وإصغاء تام لما أقول. نظرات عمال المطعم تتجه ناحيتي، بعض الزبائن يتغامزون حولي.. لا أدري لماذا؟ يبدو أن الفتاة بثيابها الرثة قد أثارت اهتمام الناس.. يبدو أنه منظر شاذ. منظري بذلك

الهندام الأنيق مع تلك الفتاة ذات الملابس الرثة الكالحة. وبدأت أخاف. صوت المنطق يصخب في أعماقي، محتجا على سلوكي. لكني صممت على موقفي، لن أسمح للندم أن يتسرب إلى كياني. أحسست بحاجتي إلى المزيد من الكلام، أي كلام.. وليكن كلاما ممجوجا مثلما يتكلم الناس في لقاءاتهم العابرة. حدثتها عن حكاية زواجي الذي لم يتم، فضحكت.. ضحكت من أعماقها.. ونصحتني أن أطلب يدها مرة ثانية. وحدثتها عن أمي المريضة، وعن زيارتي لها بعد غيبة دامت ستة أشهر. كما حدثتها عن سأمي وضجري، وعن منطقي الأجوف. قلت كلاما كثيرا. الأطباق فرغت، فطلبت المزيد من الطعام، والنظرات لما تزل تحوم ناحيتي، والغمز واللمز أصبح فاضحا مكشوفا... ما سر ذلك يا ربي؟ أليس هذا عملا طيبا؟ لماذا إذن يقيد الناس تصرفاتي؟ هل في الأمر جريمة؟ تساؤلات عديدة فرضت نفسها، لكني أهرب منها إلى الثرثرة مع الفتاة. دفعني الضيق إلى أن أستولد من الكلمات كلمات أخرى، وظللت على هذه الحال إلى أن انتهينا من الطعام تماما.. خرجت في خطوات متعثرة مضطربة، والفتاة تتبعني. لمحت صديقي أحمد فأعرضت عنه، ودعوت الله ألا يراني. مشيت مع الفتاة وأنا ما زلت أثرثر. وبدأت أعاني ضيقا شديدا عجزت عن التغلب عليه، ولا سيما أن نفس النظرات التي لاحقتني في المطعم ما تزال تلاحقني في الشارع.. الفتاة ترمقني في شبه رثاء لحالي.. قالت:

ــ أتذهب إلى السينما؟

ابتسمت، لابد أنها تحاول أن تعالج ضيقي، قلت لها:

ــ أنسيت ما قلته لك من أني سأسافر بعد قليل لرؤية أمي المريضة؟ لابد أنك نسيت.. عندك حق.. فقد تكلمت كثيرا.. ولابد أنك مللت..

ضحكت الفتاة وقالت:

ــ كنت أظن أن لك رغبة.

وتصنعت الدلال..

ــ عندك حق، فأنا متضايق بعض الشيء. مشاكلي الخاصة تزحم تفكيري.. أوه! دعك من هذا.. أظن أن البرد شديد، سأشتري لك اثنين كيلو برتقال.. كي تتغلبي على البرد، لابد أن تأكلي وتأكلي..

عرجت على فاكهي، واشتريت لها البرتقال.. حتى الفاكهي، أخذ يرمقني بنظرات قاسية، ويبتسم دون أن أفهم معنى ابتسامته.

ــ خذ يا بيه.. وهنيئا لك البرتقال.

---

* نشرت بمجلة (الأديب) اللبنانية ــ فبراير ١٩٦٨

الخائنة

رشقها بعينيه ذئب في الطريق. حقيبة يدها عامرة بمئات الجنيهات. أحست بزهو لأنها غنية، أغنى من زوجها. ولأنها جميلة وغنية، هجس لها هاجس بأن تتحرر من بيتها ولو ليلة. تذهب إلى النادي الذي شهد لقاءات مع عشيقها الذي لم تتزوجه. مجرد ذكريات ولت. رصدها الذئب هدفا يقتفي أثره وخطاه. رصدها من بعيد. دون أن يسفر عن وجهه. جلست إلى المنضدة. طلبت من النادل عصير الليمون، واستغرقت تقرأ مجلة. ومن حين لآخر، تجيل النظر إلى فتيات النادي، اللاتي كن أكثر حيوية ورشاقة.

لاحظت الذئب. تجاهلته. تعامت عنه. تظاهرت بأنها لا تراه، وإن لاحقته بعين جاسوسة. انصرفت وانصرف في اثرها. استقلت سيارتها، فباغتها وجلس إلى جوارها. رمقته شزرا. ولم تنطق. قادت سيارتها. أعطاها لفافة دخان. حدثها عن جمالها، وضعفه. حدثته عن عشيقها، وأنه يشبهه. تراشقا بكلمات كاذبة زائفة. حادت بسيارتها إلى شارع مهجور، تحوطه من الجانبين أشجار كثيرة كثيفة، ومصابيح مطفأة.

اختفت السيارة في ظلام شارع ساكن بلا عيون. بدأ يتهامسان. اقتربت يداه تتحسسان مفاتنها. التهب الثديان. قاومت وهي راغبة. واستسلمت للذئب وهي ذئبة. وما إن قضى وطره، وتلاحقت أنفاسه، قال في إيجاز :

ـ أريد مالا.

فتحت حقيبتها. مدت يدها ذات الأظافر الطويلة، تضع عشرات الأوراق على حجره.

فاجأهما شبح. لا.. شبحان.. رجلان ظهرا، كأنهما طلعا من تحت الأرض!

صرخت في جنون، وانغرست أظافرها الطويلة في لحم كتفيه. قالت الذئبة تستغيث :

ـ أيها الذئب الوغد، حرام عليك.

وأخذت تبكي مولولة، مغطية وجهها بكفيها، كأنها تخفي دموع التماسيح. حاول الذئب الفرار. خرج من السيارة غير عابئ بالأوراق المبعثرة على الأرض. لكن الشبحين، أمسكا بتلابيبه وانهالا عليه لكما وضربا وشتما. تصدى لهما بيدين عاجزتين.. تمكنا منه، واقتاداه إلى قسم الشرطة، ومعهما المرأة. تبكي عيناها الكاذبتان، وتئن لجسدها المستباح، وحرر الضابط محضرا!

وفي البيت، حكت للزوج الفقير واقعة الاغتصاب! اختلقت قصة من نسج الخيال. تشابكت فيها الأحداث، فاختلط الواقع بالخيال. واستمع الزوج المنكوب إلى حديثها، ووضح التخبط في أقاويلها. طلب منها أن تبدل ثيابها وتستريح. لاحظ شيئا، فنهض مسرعا إلى سيارتها. فحص ما بداخلها، فإذا بلباس عورتها، ملقى على الأرض مختفيا تحت المقعد. وفطن إلى شيء لم تقله، فأغمد السكين في صدرها..

انفجر في لحظة بركان غضب سكن بداخله سنوات طويلة، مريرة..

وتنهد في ارتياح.. ثم بكى حين رأى بركة الدم. صرخ هائجا، وصاح في جنون، يُسمع كل الآذان، يشهدها :

ـــ قتلتها.. قتلتها..

---

* مجلة " قصص " ـــ تونس ـــ يونيو ١٩٩٣